منه جزء صغير للمصلحة العامة لان الحكومة وهي تجبي الضريبة من الفقير باليد الواحدة يجب ان تحسن عليه من اليد الاخرى

« فمن اجماع الاقتصاديين على اعفاء الدخل الذي لا يكاد يفي بضروريات المعيشة من الضريبة لاسباب اقتصادية قد نشأت مسألة مهمة من المسائل العمرانية الحيوية في العالم المالي وهي : كيف تضرب الضريبة على الدخل الذي يزيد على حاجة صاحبه الضرورية ويمكنه ان يبذر منه او ان يوفره ؟ اتؤخذ الجزية منه على معدل واحد بلا فرق بين وفرته وقلته ام على معدلات متفاوتة بالقيمة بحسب تزايده ؟ ـ « اي كلما زاد الدخل زاد معدل الجزية المئوي المأخوذ منه كأن يؤخذ من كل من المئات الاولى واحد مثلاً ومن كل مئة من عشرات المئات اثنان ومن كل مئة من مئات المئات ثلاثة وهلم جرًّا »

(ستأتي البقية)

أنشاء الروايات العربية

معاني رواية ابن الشعب

١

كثر في السنوات الاخيرة وضع القصص العربية فقلما يمرُّ شهر الا وتصدر بضع منها في البلاد التي فيها مطابع عربية . وهم يسمونها « روايات » وهـذا خطاء في التسمية لان « الروايات » في اللغة الاحاديث المنقولة بالتواتر من فلان عن فلان عن فلان . فيلزم ان يكون هناك راوٍ ومروي عنه وحديث مروي . فاسمها الحقيقي اذاً « قصة » لانها عبارة عن احاديث ووقائع يتخيلها المؤلف و يقصها على قرائه . ولكن هذا الخطاء ـ اذا كان هناك خطاء ـ كان الاصمعي المشهور اول من وقع فيه في قصة عنترة . فانه يقول هناك في كل صفحة تقريباً « قال الراوي » وقصة عنترة اكثرها اختراع وابتداع كما هو معلوم . والخطاء او الاصطلاح الذي يجيزه رجل كالاصمعي يجوز ان يُعدَّ من الصواب المقبول

﴿ ما يلزم الرواية ﴾ على انه لو لم يكن في الروايات التي تنشر في اللغة العربية غير هذا الخطاء الاصطلاحي الصغير لكان الخطب هيناً . ولكن هناك مآخذ لا يصح السكوت

عنها وقد كثر انتشارها. فان كل من امسك قلماً في هذه الايام يرى نفسه قادراً على وضع رواية لان كل انسان يقدر على قص قصة وسرد حوادث يتصورها. وجميعهم يعلمون ان فن الروايات « علم باصول » ولكنهم يجرأون مع هذا على وضع هذه الروايات لثلاثة اسباب. الاول انعدام حرية النقد او بعبارة اخرى الجهل بحقيقة هذا الفن للاقدام على نقده. والثاني اعتبار القراء في الشرق الرواية عالماً خيالياً يُلهى به ساعة او نصف ساعة فلا يطلبون فيه غير قطع الوقت. والثالث قلة القراء في اللغة العربية فالروايات التي تظهر فيها لا يستفيد منها مؤلفوها فائدة حقيقية الا اذا كانوا اصحاب مكاتب ومطابع صناعتهم التجارة بالكتب. ولذلك قلما ترى كاتباً يجهد قريحته ويكد فكره وينضج رأيه في وضع رواية مهمة لانه يعلم ان الفائدة التي تنشأ عنها لا تعدل التعب الذي يُبذل في تأليفها وطبعها والجمهور لا يفهم منها سوى قصتها. واذا قيل ان حافظ افندي ابرهيم الشاعر المشهور قد عرب جزءاً صغيراً من رواية الميزرابل فجنى منه على ما قال الف جنيه (٥٠٠٠ ريال) فالجواب ان ما جناه المعرّب من هذه الرواية لم يكن ثمناً للرواية ولا جزاء تعبه فيها ولكنه كان تنشيطاً له من بعض سراة المصريين الذين دفع بعضهم ثمن النسخة الواحدة ٥٠ جنيهاً (٢٠٠ ريال)

وقد يظن بعضهم ان الروايات الموضوعة تعريباً تسلم من تلك المآخذ التي نقع في الروايات الموضوعة تأليفاً. لان شروط الرواية مستوفاة في الروايات الافرنجية الكبرى وما على المعرّب الاّ ان ينحو نحوها وينسج بردتها العربية. والحقيقة ان بعض الروايات الموضوعة تعريباً قد تجد فيها من التشويه وفساد الوضع والخرق في الرأي ما لا تجد مثله احياناً في الروايات الموضوعة تأليفاً. وسبب ذلك ان المعرب يتناول قلمه ويغير على تلك الرواية فيتصرّف فيها حذفاً واضافة فيقطع سلسلة اخلاقها البسيكولوجية ويشوه طبائع اشخاصها وينقص فيها ويزيد عليها من الحوادث ما لو رآه مؤلفها لقطع اذنه وجدع انفه ورضّ ساقيه وبقر بطنه تشويهاً له وتمثيلاً به كما شوه روايته ومثّل بها. وما زلنا نذكر مباحثات كثيرين ممن شهدوا تمثيل رواية (ابن الشعب) في مصر وقولهم في الجرائد وغير الجرائد انهم لم يفهموا اغراض هذه الرواية ومرامي مؤلفها. وحقهم ان يقولوا ذلك لان الذي ينظر في هذا الفن ولا يكون من اهله لا يدرك منه سوى سياق القصة وتفوته اغراضها الحقيقية التي بنيت الرواية عليها وكانت سبباً في انشائها

وقبل بيان اغراض المؤلف في هذه الرواية ناتي على بيان الصفات اللازمة للروائي ليصح ان يكون ما يكتبه معدوداً في جملة الروايات الحقيقية اي عوالم خيالية تنطبق صفاتها

واخلاقها على العوالم الحقيقية انطباقاً كلياً كانها صورة لها وكان اشخاصها اشخاصها مع زيادة في الصبغة الايديالستية فيها ليكون غرضها رفع النفوس بدل انحطاطها

١ً قوة الاختراع ـ اولى تلك الصفات قوة الاختراع والمراد بها ان تكون مخيلة الكاتب قادرة على اختراع حوادث واخبار تجعل في الرواية فكاهة ولذة . وبهذه القوة تنشأ في الرواية المشاهد والمواقف الكبرى التي تحنك فيها العواطف والاميال والمباديء احتكاكاً شديداً تستاسر لب القارىء . وكان ديماس راس المبرزين في هذه القوة . الاّ انه يجب ان لا تتجاوز هذه القوة حدّ المعقول المقبول والاّ عدّت من سقط المتاع كروايات بونسون دي ترايل . ولما سُئل تولستوي منذ مدة عن رايه في رواية غوركي (الطبقة السفلى) التي جعلت له بين كتاب اوروبا منزلة سامية اجاب انها جيدة ولكن ينقصها قوة الاختراع . ولكن كثيرين يقولون عن روايات تولستوي نفسه مثل هذا القول لانها انما تمتاز بمبادئها وآرائها وصبغتها الفطرية لا باختراع حوادثها

٢ً قوة الحركة ـ والقوة الثانية (قوة الحركة) فان تلك الحوادث التي يجيد المؤلف في اختراعها اذا لم يجعلها (متحركة) سئم قارئها وملّ قراءتها . والحركة كانت مزية ديماس الكبرى . فانك تعرف تاريخ اشخاص روايته واخلاقهم ومزاياهم وماضيهم وحاضرهم مما يقوله غيرهم عنهم في الرواية لا مما يقوله المؤلف نفسه . وكل من قرأ رواية لا يجهل انه يفضل ان يقرأ مباحثات اشخاصها على قراءة تعليقات مؤلفها . والاجادة هنا هي في جعل « حوادث » الرواية منبئة عن اخلاق اشخاصها . وكم من مرّة قرأنا فصولاً لكبار نقاد الروايات الفرنسوية يقولون فيها عن فصل في احدى الروايات ان حوادثه غاية في حسن الاختراع ولكنه « جامد » تنقصه الحركة . وهم يعتبرونها في مقدمة شروط الروايات الجيدة

٣ً وحدة السياق وتنوع الموضوع ـ والشرط الثالث في تأليف الرواية « وحدة السياق وتنوع الموضوع » والمراد بوحدة السياق رسم طريق للرواية تبتدئ في اولها وتنتهي في آخرها دون ان تخرج الرواية عنها في اثناء تقلباتها . فكأنها سلك يمدّه رجل بين طرق ضيقة وشوارع واسعة فيوغل فيها ولكن السلك في يده وهو يعرف من اين ابتدأ والى اين ينتهي . والمراد « بتنوع الموضوع » جعل مواضيع الرواية التي تتفرع من ذلك السياق متنوعة متفرّعة لاجتناب ملل القارىء اولاً واستيفاء البحث في اخلاق اشخاص الرواية ثانياً . ومن اقوال الفلاسفة ان الطبيعة واحدة من حيث مادتها ونواميسها ولكنها متنوعة من حيث صوَرها واشكالها . وهم يسمون هذا باسم ورد ذكره في الجزء الاول لهذا العام وهو « التنوّع

في الوحدة ». وما يقال في الطبيعة يقال في الرواية لان « الوحدة المقرونة بالتنوع » اساس قوة كل شيء وجماله في العالم . وبدونها تكون الحياة مضطربة مضجرة

٤ً قوة البسيكولوجيا والسسيولوجيا ـ يصح ان يقال ان هذه القوة اهم القوات الضرورية للرواية . ولما كانت مواضيع الرواية تشمل جميع الحوادث والحالات التي تطرأ على اشخاصها وعلى الوسط الذي يعيشون فيه كانت الرواية محتاجة الى اكثر اصناف العلوم . فهي تحتاج الى علم الطبيعة لكي تبني آراؤها ومبادئها واخلاق اشخاصها على دعامة علمية اي على النواميس الطبيعية والاّ كانت نسيج اوهام وخرافات . وتحتاج الى علم تقويم البلدان « الجوغرافيا » لمعرفة البلاد التي يُكتب عنها وطبائع اهلها وهوائها . وتحتاج الى علم التاريخ خصوصاً اذا كانت تاريخية . وقد تحتاج الى سائر العلوم اذا كان لمواضيعها اتصال بها . ولكنها اذا احتاجت الى جميع هذه العلوم احياناً وامكنها الاستغناء عنها جميعها احياناً فهناك علمان لا يمكنها ان تستغني عنهما اصلاً وهما علم البسيكولوجيا وعلم السسيولوجيا

علم البسيكولوجيا او « علم النفس والاخلاق » اول شيء يجب على الروائي الاطلاع عليه . وهو قسمان مصنوع ومطبوع اي اكتسابي وغريزي . فالبسيكولوجيا الاكتسابية يستفيدها الكاتب من مصدرين . الاول درس كتب البسيكولوجيا والثاني مراقبة الطبيعة والبشر للملاحظة اخلاقهم واحوالهم في جميع اطوارهم . وقد كان موليير الروائي المشهور يصرف مدة من وقته كل يوم في الجلوس في دكان حلاّق حيث يحتشد الناس عادة من طبقات مختلفة وهناك يراقب اخلاقهم ويسمع احاديثهم . والبسيكولوجيا الغريزية هي قوّة غريزية تكون في نفس الدارس يقدر بها على استنباط مكنونات النفوس واستنتاج اخلاقها وتصوير حالاتها دون ان تدري هي بها . وهي هبة من الطبيعة لتلك النفس وان كان بعض علماء الاخلاق يقول ان الدرس والاختبار قد يؤديان اليها : قال بوفون العالم الطبيعي الفرنسوي ان نبوغ اعاظم الرجال ناشئ عن تعبهم وصبرهم على الدرس (١) قلنا هذا قول صحيح في العلوم الطبيعية التي لا يستلزم الاكتشاف والاختراع فيها قوة نفسية بل قوة عقلية . واقرب شاهد على ذلك باستور وسبنسر وقد عدّ الفيلسوف نيبتش نفس سبنسر في جملة النفوس الاعتيادية (٢) . ولكن علم النفس والاخلاق وعلم الادب والفنون الجميلة لا تقاس بتلك

1 Le Genie C'est la patience

2 Mediocre اي متوسط بين الكبير والصغير

العلوم . فان ملتن وشكسبير وهيغو ورنان وجوت ووانيير لولا ان الطبيعة خصتهم بنفوس كبيرة جميلة راقية لما قدروا ان يبرزوا شيئاً مما ابرزوه في تآليفهم من آيات الجمال والكمال ولو قطعوا اعمارهم درساً . وهل يصير غير الشاعر شاعراً حقيقياً بمجرد الدرس وقرض الشعر

فالبسيكولوجيا الاكتسابية والغريزية اهم ضروريات الرواية لانها تصون المؤلف من الوقوع في الاغلاط الفاضحة بشأن اخلاق الاشخاص الذين يتكلم عنهم وتمكنه من تصوير اخلاق بشرية حقيقية منطبقة على اخلاق البشر في الدنيا بسيكولوجياً . وكم من مرة تصفحنا بعض الروايات التي تنشر بالعربية حتى اهمها واشهرها فرأينا الكاتب يصوّر اخلاق اشخاصه في اول الرواية تصويراً لا ينطبق على اخلاقهم في آخرها من الجهة البسيكولوجية . فانه مثلاً يجعل مزاج الشخص في البدء عصبياً ثم تراه في الخاتمة يجعله يسلك مسلك ذي مزاج دموي محض . واغرب من هذا انك تراه يجمع في نفس اشخاصه صفات متقابلة متناقضة تتبرأ البسيكولوجيا منها . واحياناً تراه يجعل (شخصه) يجيب اجوبة لو اطلع عليها اصغر كاتب ملمّ بمبادىء البسيكولوجيا بعد اطلاعه على الاخلاق التي صوّرها المؤلف له لقال (هذا تخريف لا تأليف) والحوادث المستخرجة من تلك الاخلاق قلما تكون لازمة عنها خارجة منها بحكم البسيكولوجيا وانما هي مجذوبة جذباً لتكون نتيجة لها وما هي بنتيجة لها . وهذه العيوب الفاضحة لا تظهر في الشرق لانها لا تظهر الا لعين الناقد البصير . ولذلك يعجب بعض القراء السذج بتلك الروايات . ولو نشرت في الغرب حيث الجمهور يميز بين الفاسد والصحيح لكانت في جملة الروايات الضعيفة التي لا يلتفت اليها احد من افراد الجمهور الراقي

وما قلناه في البسيكولوجيا نقوله في السسيولوجيا اي علم الاجتماع البشري . وهذا العلم ضروري لمؤلف الرواية لسببين الاول ان جميع الروايات المهمة في هذا العصر اصبح غرضها (اجتماعياً) واذا كان الفيلسوف اوغوست كونت واضع الفلسفة الحسية او الوضعية قد اثبت ببراعة مشهورة قبل تلميذه سبنسر ان جميع العلوم من اكبرها الى اصغرها تنتهي الى السسيولوجيا وان السسيولوجيا هي غرض تلك العلوم فاحرِ بالروايات ان يكون غرضها السسيولوجيا ايضاً اي البحث في حالات المجتمع البشري لترقيته وانماء قواته النافعة وافناء قواته المضرّة . والروايات بعد الصحف او قبلها من اهم ذرائع هذه الترقية . بل هي في الشرق اشد تأثيراً من الصحف في هذا الشان لان الوفاً من عامة القراء لا يقرأون الجرائد ولكنهم يقرأون الروايات . فهنا للرواية وظيفة اجتماعية عليا دونها وظيفة جميع الصحف والمدارس والكليات . لانها المدرسة الاولى للشعب الساذج الجاهل . واننا نشفق من

صميم قلبنا على هذا الشعب حين نرى السمّ الزعاف المدسوس في بعض الروايات العربية التي يقرأها

درس هذا الفن — كما ان العالم لا يصير عالماً الاّ بالدرس والبحث والصانع لا يصير صانعاً الا بالاكباب على صناعته فكذلك الروائي لا يصير راوياً الاّ بدرس فنه . ولكن ليس للروايات مدرسة تعلم فيها اصول هذا الفن وانما مدرسته امران . الاول (مطالعة روايات اكابر المؤلفين) والثاني (مطالعة كتابات مشاهير نقادي الروايات)

اما الامر الاول وهو مطالعة روايات اكابر المؤلفين فاظهر دليل على انه المدرسة الحقيقية لمؤلفي الروايات ما كتبه اسكندر ديماس الكبير عن نفسه . فقد قال ما خلاصته انه لما عقد النية في شبابه على ان يكون مؤلف روايات اخذ يطالع جميع الروايات المشهورة لاكابر المؤلفين فرنسويين وغير فرنسويين . فصرف وقتاً طويلاً في درسها والتأمل فيها وتدبر اغراضها ومراميها . فاتى عليها كلها حتى انطبعت في ذهنه اساليبها وطرقها واختلطت في فكره وقائعها ومذاهبها . وبعد ذلك شرع في الكتابة . فكتب الرواية الاولى واحرقها لعدم رضائه عنها . ثم كتب الثانية والثالثة واحرقهما ايضاً . ولما كتب الرابعة دفعها للتمثيل فكان لها دوي في باريز . وقد حضرها احد امراء العائلة المالكة وكان ديماس مستخدماً عنده فلما ذُكر اسم المؤلف للجمهور نهض الامير من مجلسه ورفع قبعته لمستخدمه ديماس اكراماً وتنشيطاً له

فالروايات المشهورة الجيدة هي خير مدرسة لمؤلف الروايات لانها خلاصة الاختبار والعلم في هذا الفن . ولكن هذه المطالعة وحدها لا تكفي الراغب في التأليف فيه اذا لم يكب على الامر الثاني (درس اقوال نقادي الروايات) اكبابه عليها

من تصفح الجرائد الفرنسوية الكبرى وغيرها وجد فيها فصلاً مخصوصاً ينشر في كل يوم اثنين في ذيل الجريدة لاحد النقدة المشهورين وموضوعه نقد الروايات التي تمثل في خلال الاسبوع . ورب احد هؤلاء النقدة تدفع له الجريدة اجرة للمقالات الاربع في الشهر راتباً يعدل راتب وزير . وقد كان سارسي كبير النقادين في القرن التاسع عشر بعد سنت بوف يكتب في جريدة الطان وكان الممثلون والمؤلفون اذا رأوا في وجهه وهو في لوجه دلائل الاستياء وعدم الرضى ترتعد فرائصهم خوفاً لانه كان على رأيه المعوّل . فدرس كتابات هؤلاء النقدة وغيرهم من نقدة اوروبا من اهم واجبات كاتب الروايات . لانه يستفيد من كتاباتهم نتيجة اختبارهم هذا الفن واختبار مشاهير النقدة الذين تقدموهم فيه منذ نشأته .

وقد كنا نقرأ نقد سارسي في الطان بلذة كبرى فلما توفي اصبحنا نقرأ نقد المسيو اميل فاكه في جريدة الديبا وهو من رجال الاكاذمي واشهر النقدة الفرنسويين اليوم . على ان كتب النقد الروائي كثيرة في اللغة الفرنسوية لمن يطلبها . وهي اهم واصح من الكتب الغير الفرنسوية لان الفرنسويين ما زالوا متفردين في هذا الفن في اوروبا كلها

٦ عاطفة الجمال — والشرط السادس والاخير من شروط وضع الروايات التزام (عاطفة الجمال) فيها لان تأثيرها وحلاوتها متوقفان على ذلك . ويدخل في هذا امران . الاول (جمال موضوعها) والثاني (جمال سبكها) اما جمال موضوعها فمتوقف على الاجادة في الصفات الخمس التي تقدم بسطها . واما « جمال سبكها » فالمراد به نسجها بلفظ عذب ومعنى طلي وروح جلي فيجد القارىء حين مطالعتها من الحلاوة والعذوبة ما يستأسر لبه . واذا كان الجفاف والجمود في الانشاء مما يُغتفر في المباحث العلمية والتاريخية لان الغرض منها تقرير الحقائق سواء كان لباسها من نضار او كان عليها اطمار فان ذلك مما لا يُقبل في الروايات اصلاً لان العمدة في الروايات انما هي على التأثير في نفس القارئ لجذبه الى مبادئها وشرح صدره بحلاوتها . وهذا الجذب والتأثير لا يتمان الا « بعاطفة الجمال »

هذا ما رأينا بسطه في هذا الفصل لعلّ فيه فائدة . وفي الفصل التالي سننجز ما وعدنا به من شرح مغزى رواية ابن الشعب ومراميها

رجاء الى المشتركين نرجو من كل من يراسل الجامعة ان يجعل عنوانه في كتابه بخط واضح باللغة العربية والانكليزية معاً اجتناباً للخطاء وتسهيلاً للعمل وله الفضل